المجتمع الإسلامي

مقدمة:

لم يعن المؤرخون الإسلاميون كثيراً بدراسة المجتمع الإسلامي، وحياة السكان اليومية وأجناسهم ومدى اختلاطهم، إذ كان جل همهم منصرفاً نحو أمور البلاط وأحوال السياسة وأخبار الحروب؛ ومن ثم كان على دارس المجتمع الإسلامي أو الحياة الاجتماعية أن يستنبط حقائقه مما يرد من إشارات في الكتب المختلفة من تاريخية وأدبية ودينية سواء أكانت على هيئة أمثال أم قصص أم غيرها، وكذلك في ضوء ما وصلنا من آثار أو منتجات فنية.

الحياة الاجتماعية وتكوين المجتمع العربي:

وكان للمجتمع العربي الإسلامي سمات واضحة، ومميزات قيمة أثرت أثرها العظيم في حياة المسلمين وحضارتهم، فقد كان يسودهم الإخاء والتسامح، وكانوا يتسمون بالحلم والأدب الجم، والوقار، والرضا بما قسم الله من حظوظ الدنيا، فكان حقاً مجتمعاً سعيداً هانئاً مطمئناً. وفي هذا يقول جوستاف لوبون: «إن مما يستوقف النظر ما نراه من التضاد بين ثبات نظم الشرقيين، وتسليمهم بالأمر الواقع الذي ليس له دافع، والإخاء السائد لمختلف طبقاتهم، وبين ثورات الأوربيين الدائمة، وهرجهم وتنازعهم الاجتماعي، ومن أبرز ما يتصف به الشرقيون أدبهم الجم، وحلمهم الكبير، وتسامحهم العظيم نحو الناس والأموال، ودعتهم

ووقارهم وقناعتهم، وقد منحهم إذعانهم لمقتضيات الحياة طمأنينية روحية قريبة من السعادة المنشودة، وقد أورثتنا أمانينا، واحتياجاتنا المصنوعة قلقاً نفسياً بعيداً عن بلوغ تلك السعادة»[1].

طبقات المجتمع العربي وطوائفه:

كان المجتمع العربي يتكون من عدة طوائف وطبقات تختلف باختلاف أحوالها، ومنزلتها الاجتماعية، ومن أهم هذه الفئات الاجتماعية:

١- طبقة رجال الدولة (الطبقة الحاكمة):

وتشمل الخلفاء والسلاطين والأمراء والقضاة ومن إليهم، وكانوا يتولون الوظائف الرئيسة، والمناصب الكبرى.

٢- طبقة العلماء:

وتضم العلماء والأدباء، وهؤلاء كان لهم في الدولة نفوذ أدبي عظيم، ويتمتعون بمنزلة شعبية مرموقة، وإلى العلماء كان يرجع في أمور دينهم[2].

٣- فئة الجند:

وكانوا يتميزون بملابسهم وزيهم، ولهم ديوانهم الخاص الذي يرون فيه أوصافهم وأعمالهم وأرزاقهم.

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٣٨٦.

(٢) د. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٣٨٢.

٤- طبقة التجار والملاك (الطبقة العليا):

وهذه الطبقة تشمل رجال الأعمال من أصحاب الأملاك والتجار والصناع، وهؤلاء كانوا يختلفون باختلاف أحوالهم وثرائهم، ويتميزون بملابسهم، وطرق معيشتهم. كما يمثل هؤلاء الطبقة العليا من المجتمع الإسلامي.

٥- طبقة العامة:

وتشمل عامة الناس وسواد الأمة، وهم الفلاحون والرعاة والشيالون والسقاؤون، وهي الطبقة الدنيا في المجتمع.

٦- طبقة الطوائف الدينية:

وهم أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة، وكان لهم حق أداء شعائرهم الدينية، كما نعموا بالرخاء، وشغلوا كثيراً من الوظائف حتى العليا منها، وكان لهم عقد وذمة في عنق المسلمين.

٧- طبقة الرقيق:

وتشمل فئة الخدم ومعظمهم من الرقيق الذين جلبوا من شعوب غير الإسلام، وقد شاع استخدام الرقيق في عهد الدولة العباسية، وقد خفف الإسلام من الرقيق وشجع على تحريرهم وعتقهم. وقد وجد نوع من الرقيق عرفوا أحياناً باسم الطواشية، وهم الخصيان من الغلمان، وكانوا يقومون بخدمة الحريم وحراستهم في قصور الطبقة الحاكمة[١].

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، جـ٤، ص٥٨٢-٦٢٤. وانظر كذلك أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٢٦٩-٢٧٠.

أحوال المجتمع العربي:

١- كانت الحكومة عربية خالصة من بدء الإسلام إلى نهاية عهد الأمويين.

٢- نظر الأمويون إلى غير العرب من أهل البلاد المفتوحة نظرة من يرى أنه أعلى قدراً، وأسمى منزلة -على الرغم من اعتناقهم الإسلام- وأطلقوا عليهم اسم الموالي، وكان لإطلاق هذا الاسم عليهم رغم إسلامهم أثر سيئ في نفوسهم ظهر في انضمامهم للعباسيين ضد الأمويين.

٣- تطورت الأحوال، وقامت الدولة العباسية على أيدي الفرس، فعلت منزلة الموالي، وأسند إليهم الكثير من الوظائف المهمة في الدولة، وأصبح لهم نفوذ واضح لدى الخلفاء العباسيين أثار نقمة العرب عليهم.

٤- في عهد الخليفة المعتصم دخل العنصر التركي في الجيش الإسلامي، وصار لهم نفوذ قوي في المجتمع، وسلطان لا يدافع، إلى حد أنهم كانوا يولون الخلفاء ويعزلونهم حسب أهوائهم(١).

٥- وضعت الجزية على أهل الذمة لحمايتهم وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم، على أن ترفع عنهم متى أسلموا، وقد أحسن العرب إليهم وأكرموهم، ولم يضايقوهم في شيء من أمور دينهم أو دنياهم. فكانت لهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، ومزاولة شتى الصنائع والحرف وما إليها من أمور الدنيا.

---

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ٣، ص١٩٧-٢١٠.

ولم تخصص لهم أحياء في المدن للإقامة فيها، ولم يمنع تدينهم بغير الإسلام من وصول بعضهم إلى مناصب عليا في الدولة، وبخاصة الوظائف الكتابية، كان للأطباء النصارى من أهل الذمة شأن عند خلفاء العباسيين، كما كان كثير منهم ذا ثراء ظاهر.

واليهود وإن كانوا أقل عدداً من النصارى لكنهم كانوا أحسن حالاً منهم لاشتغالهم بالصرافة، وكان لهم في بغداد جالية ذات شأن، كثيرة العدد، وكان لكل من اليهود والنصارى رئيسهم الديني الذي يشرف على شؤونهم الدينية[1].

(١) جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، جـ٣، ص١٣٦.

obeikandl.com